التفكير مع إدوارد سعيد: البدائل المعاصرة للاستشراق

إنّ الاستشراق الذي أحاط به إدوارد سعيد في كتابه و عمل على فضح تورط مؤسساته الأكاديمية – التي يفترض أن تكون موضوعية– في أغراض سلطوية لايزال متواصلا إلى اليوم. فالخطاب الذي تغذى برؤى الاستشراق و تعدّد الاستشراق بدوره فيه و تشعّب كفيل بأن يقودنا إلى تحليل عميق لهذه لظاهرة.

تحدّث إدوارد سعيد منذ ١٩٧٨ عن الاستشراق من موقع مناسب إذ عرّت كل من الحربين العالميتين الأولى و الثانية نظرته التشكيكية للدراسات الاستشراقية. و قد طعّم هذا المشروع ببعض أفكار من سبقوه أمثال أنور عبد المالك[١] و استعان بأدوات و مناهج مختلفة منها المنهج البنيوي من خلال ميشال فوكو ليفضي به ذلك إلى تأسيس مرحلة فارقة نوعيا في تاريخ المبحث الاستشراقي .

لقد درس إدوارد سعيد الاستشراق باعتباره أسلوبا في الخطاب والتفكير و بالعودة إليه لم يكن المستشرق يهدف من خلال هذا الخطاب إلى الإعلام و التبليغ فقط عن هذا الشرق إنّما سعى أيضا إلى تكوين صورة جديدة عنه. و لم يفته الإشارة إلى كون هذا الخطاب مدعوما بمؤسسات و مفردات و جهات سلطوية مختلفة.

و سنستعيد من خلال هذا الثالوث في تاريخ الاستشراق الإدواردي المتمثل في (خطاب – صورة – سلطة) جملة من الأفكار الواردة في بحث إدوارد سعيد، دارسين العلاقات المختلفة بين مظاهر كل واحدة منها.

إنّ استحضارنا لمشروع سعيد لا يعود فقط إلى كونه "حدثا " نقديا هاما للاستشراق بل دفعتنا رغبتنا في توسيع نطاق هذا المبحث إلى ذلك دفعا. إذ ألمع في مقدمة كتابه "الاستشراق" إلى مبحث هام يمكن التطرّق إليه و هو البحث عن البدائل المعاصرة للاستشراق. و نشير هنا إلى أنه رمى من وراء هذه التسمية إلى إيجاد حلّ يمكّن من دراسة الشرق دراسة تحررية بريئة من القمع و التلاعب على حدّ قوله. و في ضوء هذا التصور سعينا للبحث عن هذه البدائل التي تبيّنا في مرحلة ما – كما سيظهر لاحقا– أنها لم تكن تصحّح مسار الاستشراق إنما كانت تواصله. فلئن استبدل الجهاز الاصطلاحي بآخر من قبيل "الإرهاب" "الإسلام" مما أدى إلى تغير الخطاب شكليا إلّا أنّ المضمون الاستشراقي ظلّ متشابها. و لعلنا نعود هنا بطريقة غير مباشرة إلى تعريف إدوارد سعيد للاستشراق على أنّه طريقة في التفكير؛

---

[١] نقد أنور عبد المالك لأدوات الاستشراق و منهجه.

القولبة و جعل الآخر موضوعا. إذ لم يعد الغرب ينظر إلى الشرق على أنّه "عالم " و يحتاج من يمثله بل صار الآخر الذي يجب السيطرة عليه أو القضاء عليه .

و هنا يكمن لبّ التفكير مع إدوارد سعيد ، توسيع مشروعه و البحث عن البدائل المعاصرة التي ينتجها التاريخ و التاريخ الذي ننتجه الأمر الذي يؤكد لنا دائما أن الاستشراق واحد و متعدّد.

نزّل إدوارد سعيد الاستشراق ضمن دراسة الخطاب إذ اعتبره عملا بمنهجية فوكو في صياغة تاريخ أفكار جديد، خطابا متعدّدا متشابكا تكوّن في لحظة زمنية معيّنة بشكل أكثر بساطة و ظلّ يتجدّد و يظهر كلما احتدّت الحاجة إليه. إذ عرف هذا الخطاب الاستشراقي لحظات " انفجار خطابي "[٢] شرّع لها تحريض مؤسسي معيّن.

و تلحّ علينا أسئلة من قبيل "متى و كيف نشأ هذا الخطاب الاستشراقي؟" لرصد المواقع التي انطلق منها. فتكوّن الصيغ العبارية لكل خطاب تتأسس على بحث في هوية المتكلم و مجموعة المتكلمين التي لها حقّ امتلاك هذا النوع من اللغة .[٣]

و للإجابة عن ذلك يعود إدوارد سعيد بأصل الاستشراق إلى العصر اليوناني استنادا إلى تعريفه للاستشراق طريقة في التفكير و أشار بشكل دقيق إلى إلياذة هوميروس[٤] التي حملت مشروع "الجغرافيا المتخيلة"، القائمة على رسم حدود بين الشرق والغرب. وتظهر مثل هذه التقسيمات في أعمال هوميروس وغيره كمسرحية الفرس لايسخولوس مساهمة في إلغاء هذا الآخر (الشرق) و تقديمه بصورة مركبة ينتجها خطابه. ويلمّح إدوارد سعيد من خلال هذا الارتداد إلى العصور القديمة إلى أنّ الاستشراق ليس حاجة أكاديمية ملحة ظهرت في القرون الأخيرة إنما هي ضرب من التفكير والنماذج إلا أنّ ذلك لا ينفي تجذّره من خلال المؤسسات المتنوعة التي ستكفله وهو ما يؤكد الطابع التطوري والمثابر للخطاب الاستشراقي.

و قد أنتج هذا الخطاب مجموعة من المفردات و الصيغ التعبيرية التي سيشتغل بها في هذا الحقل الواسع و كنا قد سبق وأشرنا إلى ثنائية شرق–غرب المؤسسة للصورة النموذجية للاستشراق. وتستمد هذه الصورة مشروعيتها من أسطورة الطبائع الثابتة التي جعلت الغرب غربا والشرق شرقا بكل ما يحمله كلاهما من خصائص وطبائع مختلفة تجعل إمكانية التقائهما أمرا مستحيلا. إذ يبقى الغربي متفوقا على الشرقي الذي لن يستطيع إلى حدود القرن العشرين تزامنا و حركات التحرر الوطنية الحديث عن نفسه وإنّما سيقدّم في كل مرة على لسان الغربي ضمن رؤيته

---

[٢] فوكو (ميشال) ، إرادة المعرفة ، ترجمة و تحقيق مطاع صفيدي – جورج ابي صالح ، منشورات مركز الإنماء القومي.

[٣] فوكو (ميشال) ، حفريات المعرفة ، ترجمة سالم يفوت ، المركز الثقافي العربي.

[٤] سعيد (ادوارد) ، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق ، ترجمة د.محمد عناني دار الرؤية.

الدونية له. فالصورة التي أنتجها الغربي عن الشرق هي صورة مخترعة منذ العصور الأولى وهي غريبة عن إدراك الشرقي لشرقيته.

ثم إنّ عملية تنزيل الشرق في الخطاب لم تجعله فقط متميزا عن الغرب بل و موضوعا له. إذ يتشكل الشرق موضوعا من اللحظة الأولى التي يكتسب فيها صفة الآخر ويستقل فيها اصطلاحيا ليكوّن كيانا جديدا. ويشير هذا الاستنباط الاصطلاحي لوحده على المهمة التي تخيرها الغرب في إعادة تشكيل المجالات و خلق جغرافيا زائفة أي صنع جغرافيا جديدة. و ستتواصل هذه الرغبة في إعادة التشكيل إلى عصرنا الحالي كما سنتبين ذلك لاحقا.

إنّ الفكرة المؤسسة لاختلاف الشرق عن الغرب ليست مدعومة باستدلالات جغرافية ملموسة فقط بل يعضدها في ذلك جهاز مفاهيمي و تصورات تشكلت عن طريق نصوص مختلفة و يشدّنا في هذا الصدد نصّ فلوبير الذي قابل فيه الغانية المصرية وما لفت نظر إدوارد سعيد في هذه المقابلة [٥] ليس فقط كونها أصبحت نموذجا للمرأة الشرقية فيما بعد و إنما الحركة السلبية لهذه الغانية داخل الخطاب فهي لم تتكلم و لم تعبّر عن مشاعرها أو افكارها بل ظلّ فلوبير يتحدّث من خلالها مكوّنا صورة عنها تتناسب ورؤيته للشرق. ونلاحظ كما لاحظ إدوارد سعيد أنّ فلوبير يتحدّث من موقع قوة خوّل له احتكار الخطاب والأحقية في إنتاجه، فسلطة الخطاب تمثل وجها من وجوه الإخضاع والتفوق مما يجعلنا ننتقل للحديث عن خطاب السلطة، هذا الخطاب الذي انتقل من أسطورة افتراضية عن تفوق الغربي على الشرقي إلى خطاب عملي أكاديمي مثبت.

ويفترض إدوارد سعيد ههنا مرّة أخرى أنّ البدايات الرسمية لهذا النوع من الاستشراق (الواضحة على الأقل) كانت إثر قرار مجلس الكنائس في مدينة فيين بفرنسا إنشاء سلسلة من كراسي الأستاذية للغات العربية واليونانية والعبرية والسريانية بباريس وهو ما كرّس وجود هذا الشرق لا جغرافيا أو فكريا تصوريا فقط بل النظر إليه على أنه مجال للبحث والتعرف. و مع حلول منتصف القرن الثامن عشر أصبح الشرق مجالا علميا أكاديميا واسعا. ليتحوّل الخطاب النمذجي في العصور القديمة إلى خطاب معرفي علمي تدعمه مؤسسات أكاديمية و مثلت هذه المؤسسات مجالا سلطويا يخضع له الخطاب الاستشراقي.

ونميل إلى اعتبار هذه المرحلة الأولى من الاستشراق مرحلة تأسيسية، هي مرحلة التحويل والإعتراف. إذ تمرّ عملية تحويل الشرق من معطى جغرافي إلى خطاب من خلال وضع هذه الصورة الطبيعية الجغرافية في إطار. ونقصد بالإطار ههنا البعد الذاتي بكل ما يحمله من خلفيات ثقافية وسياسية وأخلاقية واجتماعية [٦]. فينتقل المعطى الأوّلي "الشرق

" بذلك إلى رسالة تبليغية دلالية تحمل رموزا وشفرات يمكن حلها ودراستها. أما عملية الاعتراف فتتم عن طريق إضفاء مشروعية على هذا الخطاب، مشروعية لها من القوة ما يخوّل لها ضمان حسن استقبال العقل الغربي لها والأهم تبنّيها [٧]. و كان للمؤسسات الأكاديمية ههنا دور هام في إحتضان هذا الخطاب ودفعه إلى المزيد من التشعّب إذ تناولت هذه الدراسات مواضيع متنوعة كدراسة لغة الشرق و تاريخه و علومه وغيره و ذلك لغاية الإحاطة به واستيعابه.

و بناء على ذلك لم يعد الخطاب تجليا لذات تفكّر و تعبّر عمّا تفكّر فيه بشكل مبسط في أعمال أدبية، بل أصبح مظهرا من مظاهر التفكير الجماعي. أي لقد صار بعبارات فوكو " مكانا كله خارج لا باطن له"[٨] وهنا تكمن قيمة اعتبار إدوارد سعيد للاستشراق خطابا، فالمؤسسات الأكاديمية رسمت نسقا للتفكير في الشرق وجذّرته وأصبحنا نتعامل مع "موضة " جديدة في التعامل معه ، فهو إمّا الشرق الروحاني الخرافي أو الشرق العنيف المتأخر.

و برزت هذه المصطلحات مصحوبة بجملة من الدراسات التي تبنتها، نذكر من ذلك على سبيل المثال لا الحصر، دراسات المستشرق الفرنسي آرنست رينان Ernest Renan (ت ١٨٩٢) التي عنيت بتاريخ المسيحية وتاريخ شعب إسرائيل. ورغم اهتمام آرنست بهذا المجال فإنه قدّم مجموعة من الأفكار حول الحضارة العربية والإسلام بشكل عام وما يهمنا ههنا الصورة التي كوّنها عن الشرق وما تحمله من مواقف لا تخلو من الشدة والقسوة. إذ يعتبر رينان أنّ العربي فوضوي بطبعه[٩] وهو ما يمكّنه دائما من الظفر في الغزوات ويضيف أنّ العرب لم ينتجوا علما قط إنما نقلوا العلوم عن طريق لغة العصر والحضارة آنذاك و هي العربية و استدلّ على ذلك بأن عقد قياسا على اللغة اللاتينية التي كتبت بها العلوم في القرون الوسطى وعصر النهضة إلاّ أنّ ذلك لم يعن بأي وجه من الوجوه أنّ روما قد ساهمت في هذه العلوم أو أنتجتها. ويشدّد رينان على أنّ الدين الإسلامي مناهض للعلم العقلي والتجريبي[١٠].

ثمّ إنّ هذه الدراسات لم تشرّع فقط لاعتبار الشرق همجيا بل اعتبرته شرقا ضعيفا و نقصد بالضعف ههنا الضعف السياسي، إذ أشار رينان أيضا في جملة أفكاره إلى أنّ الشرق يفتقر إلى التدبّر السياسي وهو عاجز متى أراد تكوين مجتمع مستمر[١١]. وقاد هذا الضعف "المبرّر" من قبل الدراسات الأكاديمية إلى تطوير الموقف إزاء الشرق فمنذ أواخر القرن التاسع عشر أصبح الهاجس تمثيليا فالشرق لم يعد قادرا على تمثيل نفسه ولابدّ أن يمثّله أحد[١٢].

---

[٧] تحليل الصورة مستوحى من محاضرة في أعمال ندوة في جامعة ٩ أفريل بتونس حول النظام قيد و حرية سنة ٢٠١٦.

[٨] فوكو (ميشال) ، حفريات المعرفة ، ترجمة سالم يفوت ، المركز الثقافي العربي.

[٩] بدوي (عبد الرحمن) موسوعة مستشرقون ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٩٣ ، ط ٣ جديدة.

[١٠] م.ن

[١١] م.ن

[١٢] قولة لكارل ماركس بتصرف.

وظهر على إثر هذا مصطلح "التمثيل" و اتخذ أوجها عدةّ سنأتي عليها. و تتركز عملية التمثيل على مبدأ أساسي و هو إدراك الغربي لموقعه إذ يذكر إدوارد سعيد أنّ المستشرق الحديث "*يرى نفسه بطلا ينقذ الشرق من العتمة و الإغتراب*" ويحقّق ذلك من خلال بحوثه ودراساته التي تعيد تكوين ما فقده الشرق من لغاته وطرائق تفكيره. ولاشك أنّ هذا الاعتقاد يؤسس لمشروعية جديدة عدا تلك التي يفرضها البحث الأكاديمي من حريّة التقصّي وتسيس هذا الشرق، مشروعية تنهض على ضرورة " تمثيل "هذا الشرق و رسالة ثقافته وفكره و تاريخه و تقديمها له.

إذ يبدو تناول الغربي لهذا الشرق تناولا لا يهدف من خلاله إلى خدمة الشرق أو الشرقي تحديداً وإنما هي خدمة يسندها إلى نفسه .

فعملية البحث المكثفة التي طبقها الغربي على الشرق كانت ترمي إلى إكمال الموروث الأوروبي العلمي والثقافي، فالشرق ليس خاصا من هذا المنظور بالشرقي بل هو جزء لا يتجزأ من الغرب. إن التراث الحضاري للشرق تراث إنساني، و بالتالي يجب أن ينظر إليه كمجهود وحصيلة جماعية. و يستند الاستشراق في تصوره هذا إلى القيم و المبادئ التي انتشرت في عصر التنوير ونشير بذلك إلى النزعة الإنسانوية في القرن الثامن عشر، إذ كان الاستشراق مدفوعا بهاجس الكونية والتعميم وقد انتشرت في هذه الفترة الأعمال الموسوعية دليلا على تحّكم هذه النزعة في الدفق الفكري في ذلك العصر.

وبالتالي يمكننا أن نعرّف التمثيل المعرفي أو الأكاديمي من خلال هذا التصور الكوني الهادف إلى التوحيد بمعنى عام وصهر الآخر– الشرق في النسيج الغربي الاستشراقي بمعنى خاص.

ونتوّج هذا التعريف بالإشارة إلى الطابع السلطوي للمؤسسة الأكاديمية التي كانت تدعم الاستشراق في مرحلة ما معينة. فالسلطة التي تتحكم في هذا المشروع الاستشراقي ليست سلطة سياسية فقط كما قد يتبادر إلى أذهاننا إذا ما تصفحنا كتاب الاستشراق وإنما هي سلطة مركبة و ليست بقدرة معيّنة يتمتع بها البعض و إنما هي الاسم الذي يطلق على وضع استراتيجي معقد في مجتمع معين[١٣].

لقد قاد الهاجس "الإنسانوي" إلى تشكيل نسق عام للتفكير ولا يخفى علينا أنّ تنزيل هذا الهاجس في خطاب عصر الأنوار كان له تأثير كبير على المدى البعيد في دعم المشروع الاستشراقي الذي سيتحول من نظام سلطوي أكاديمي إلى نظام سلطوي سياسي–عسكري. إذ تطور مشروع التوحيد المعرفي إلى مشروع توحيد جغرافي، ولا نعني بالتوحيد الانسجام بين المكونات الموحدة وإنما نتحدث عن خلق شرق يشبه الغرب وبالتالي يمكن أن ينسجم معه في نسيج معرفي بل جغرافي أيضا.

---

[١٣] فوكو (ميشال) ، إرادة المعرفة ، ترجمة و تحقيق مطاع صفيدي – جورج أبي صالح ، منشورات مركز الإنماء القومي.

ولعل وعي الغرب بصعوبة تطبيق هذا المشروع على المستوى النظري فقط – إعادة بناء معارف الشرق– هو الذي دفعه إلى البحث عن سبل جديدة يتمكن من خلالها من التحكم في الشرق. وظهرت أولى مشاريع التوسع مع سقوط الإمبراطورية العثمانية وحركات الاستعمار الامبريالي . ونرصد ههنا وجهين من وجوه التمثيل العسكري السيادي، الأول كان سليل الاعتقاد بأنّ الشرق ضعيف ولا يستطيع أن يسوس نفسه أما الوجه الثاني فكان إمبرياليا بالأساس هدفه توسيع الاقتصاد الغربي والبحث عن أسواق جديدة. وكما يظهر لنا مما ذكر تقف مؤسستان مختلفتان وراء هذا التمثيل. الأولى هي المؤسسة السياسية مدعومة بأفكار أكاديمية كونت صورة سابقة وجاهزة عن الشرق – يذكرنا هذا مرة أخرى بمشروع إدوارد سعيد في كشف تورط الاستشراق الأكاديمي في دعم مؤسسة الاستشراق – والمؤسسة الثانية هي المؤسسة الاقتصادية المدعومة أولا بسلطة سياسية و ثانيا بمجهود معرفي وأكاديمي كبير.

وفرض الوجه الأول من وجهي التمثيل خطابا معينا ودقيقا يتناسب وهذا التصور عن التمثيل، ولا أقرب إلينا من مثال نظام الحماية المفروض على تونس من قبل السلطات الفرنسية سنة ١٨٨١. إذ تدخّلت السلطات الفرنسية في البلاد التونسي إثر عجز محمد الصادق باي عن تسديد ديون البلاد التونسية وسوء تسييره لشؤون البلاد. هذه "الحماية" التي امتدت إلى حدود سنة ١٩٥٦ تاريخ الاستقلال بعد مقاومة طويلة يؤكد لنا أهمية الخطاب في تسييج المشروع الاستشراقي الغربي. إنّ التركيز على انتقاء المصطلحات و تشكيل الخطاب جزء لا يتجزأ من عملية التحكّم والهيمنة. فمصطلح "الحماية" يظهر زمن تنزيله في الخطاب ملائما للفكر الغربي الذي سعت المؤسسات الأكاديمية إلى تكوينه وتهيئته لهذا التواصل الجديد مع الشرق – تواصل الهيمنة – فالشرق كما بينه إدوارد سعيد أنّه الوطن العربي عموما لا يستطيع تمثيل نفسه وبالتالي هو في حاجة لمن يمثله. و لذلك كان مصطلح "الحماية" مناسبا لفرض تمثيل سيادي للسلطة الفرنسية على البلاد التونسية. وما يكشف لنا حقا أهمية الخطاب، انكشاف المساعي الخفية للسلطة الفرنسية لاحقا وتحوّل هذا المصطلح إلى بديله "الاستعمار الفرنسي" .

وما يكشف لنا "تورّط" الاستشراق الأكاديمي في هذه المساعي هو تغيّر دور المستشرق نفسه، فهو لم يعد جزءا من مجموعة بحث بل أصبح "رسولا " للمنظمة الاستشراقية في الشرق. ونعرّج ههنا على أحد الأعلام المهمين في الاستشراق الإيطالي، " نلّينو " carlo alfonso nallino" (١٨٧٢–١٩٣٨) مدير معهد الشرق من أجل دراسة أحوال الشرق وشؤونه السياسية والاقتصادية والثقافية. وكان اختصاص نلّينو علم الفلك العربي والجغرافيا وكتب في هذا الشأن كتبا فترجم وعلّق على زيج البتاني في ثلاثة مجلدات[١٤] . وما يهمنا حقيقة فيما يتعلّق بهذا المستشرق الإيطالي هو الوظيفة التي أسندت إليه من قبل السلطات الإيطالية. فبعد هيمنة إيطاليا على طرابلس عيّنته السلطات مديرا للجنة تنظيم المحفوظات العثمانية ومديرا أيضا لمكتب الترجمة [١٥]. واستعانت به في نقل أسماء البلدان العربية في

---

[١٤] بدوي (عبد الرحمن) موسوعة مستشرقون ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٩٣ ، ط ٣ جديدة.

[١٥] م.ن

طرابلس إلى اللغة الإيطالية وفي مسألة الخلافة أيضا التي أثارها الأتراك حينها وكانت موضوعا لكثير من المشاورات السياسية [١٦] وكتب نلّينو في هذا الصدد رسالة طويلة عن الخلافة وطبيعتها بشكل عام ثم الخلافة العثمانية "المزعومة" على حدّ تعبيره بوجه خاص.[١٧]

وإذا ما دققنا النظر في طبيعة العلاقة بين المستشرق بوجه عام- نلينو مثالا- في هذه المرحلة من الاستشراق استطعنا أن نقف على الصلة الوثيقة التي أصبحت عليها العلاقة بين الاستشراق الأكاديمي والاستشراق بمؤسساته السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيره. فأن يكتب نلّينو رسالة حول قضية راهنة في ذلك الوقت ليدحض مزاعم الآخر المتمثل في سيادة الإمبراطورية العثمانية لا يعني ذلك سوى تسخير السلطات السياسية والعسكرية للمعارف والدراسات لتحقيق مشاريع عملية أكثر و"ميدانية ". ثم إن هذا التزاوج المستجد للمؤسسات المختلفة للاستشراق سيدفع بمصطلح "المستشرق" إلى التطور من هاوي للشرق ثم باحث إلى خبير بالشرق. ويتنزل المصطلح الأخير " خبير بالشرق " في خطاب يبتعد بطريقة أو آخرى عن الموضوعية العلمية لينشأ في محضن معقد ومركب تتقاطع فيه الاختصاصات والمؤسسات التي تدعمه. فالخبير بالشرق لا يحدّه اختصاص معرفي علمي معيّن إنما أضحى هذا المجال مجالا مفتوحا أمام الصحافي والاقتصادي والباحث الاجتماعي والسياسي وغيرهم. ويمكننا أن نخلص ههنا إلى أنّ هذا الوجه الأول للتمثيل استمرار للنظرة الاستشراقية المدعومة بالاستشراق الأكاديمي وبمفردات أدقّ هو حسن توظيف و استثمار لها.

أمّا الوجه الثاني من أوجه التمثيل فكانت تسيّره بالأساس مؤسسات اقتصادية تهدف إلى فتح مجالات جديدة وصناعة صورة جديدة عن الشرق هي صورة "الأسواق". ونلاحظ ههنا أنّ المؤسسات التي تقف وراء الاستشراق تطوّع صورة الشرق لخدمة تصور ما تضعه. ومن هذا المنطلق يمكن أن نتحدث عن شرق هو بمثابة الفرصة المتاحة والجديدة للاقتصاد الغربي. ولابد أن نشير ههنا إلى أنّ هذا التصور مدعوم بنسق فكري معيّن هو فكر اقتصادي بالأساس نستطيع تلخيصه في قول آدم سميث " *دعه يعمل دعه يمرّ* ". وهنا نقف مرة أخرى على مدى فاعلية الخطاب في صنع المتصورات وأهم من ذلك الأفكار. فتنزيل الاقتصاد ضمن خطاب يفتح أمامه مجالات عديدة للتحقق. فالاقتصاد ليس مجرد أسواق ومعاملات تجارية إنما هو خطاب علمي أيضا وسياسي. وهو ما يفسر حركة التوسع الإمبريالي التي اقترنت بمؤسسات سياسية وفكرية معينة .

كنّا قد ذكرنا سابقا مجهودات الغرب لصنع شرق شبيه به لغرض التوحّد معه والانفتاح عليه، وتمثل المؤسسة الاقتصادية فرصة بالنسبة إلى الاستشراق لترسيخ هذا المشروع ودفعه إلى التحقق. وإذا ما أردنا توضيح ذلك فإننا سنلتجئ إلى لغة اقتصادية بالأساس فضخّ المنتوجات الخاصة بالغرب ككل في الأسواق الشرقية العربية سيؤدي إلى

---

[١٦] م.ن

[١٧] م.ن

استهلاك هذه الفئة لنفس المنتجات التي يستهلكها غيرهم في الجانب الآخر من العالم، كما أنّ حاجياته ستصبح شبيهة بحاجيات غيره من الغرب، فالمؤسسة الاقتصادية لا تحقق فقط الربح من خلال عملية التصدير وضمان حيوية السوق بل كذلك تحقق بطريقة غير مباشرة "حلم" الاستشراق في تكوين شرق شبيه بالغرب، شرق هو صورة أخرى عن الغرب لكنها أقل جودة.

وتهدف إجمالا وجوه التمثيل هذه مجتمعة إلى التحكمّ في الشرق. هذا التحكم الذي سينبني على الترسيس، فنحن من هنا فصاعدا أمام استشراق "إعادة تكوين المجالات". واستندنا في اختيارنا لهذا المصطلح إلى طبيعة التمثيل التي تميل إلى إعادة بناء عناصر الصورة كما يجب أن تكون بالنسبة إليها، فعملية التمثيل تقتضي ضرورة تدخّل المتلقّي في عملية التمثيل وبالتالي هو يعيد بناء هذه الصورة بطريقة ذاتية. فالترسيس جزء لا يتجزأ من نظام الاستشراق وبناء على هذا جعلنا الاستشراق المدعوم بمؤسسات عسكرية وسياسية استشراق إعادة تكوين المجالات.

وتظهر ملامح هذا الاستشراق في تقسيم "تركة الرجل المريض". فتوزيع المستعمرات على البلدان الأوروبية وتحديد مجال جديد للشرق مختلف تماما عن مجاله السابق يصوغ لنا بصورة واضحة هاجسا جديدا هو وضع الشرق في صورة جغرافية محددة تمكّن من التحكّم في كل أجزائها و معرفة موطن الخلل والقوة منها.

ذكر إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق أنّ الاستشراق "طموح جغرافي كبير"، ونستعير هذا الوصف لنؤكد على أهمية فكرة إعادة تكوين المجالات. هذه الفكرة التي أرهقتنا في بحثنا عن أهمية مركزها في الهيمنة والسلطة. إذ امتدّ تأثير هذه الظاهرة إلى يومنا هذا وهي بذلك تمثل مدخلا من مداخل البحث عن البدائل المعاصرة للاستشراق. هذه البدائل التي جعلت من ظاهرة الاستشراق تتوسع لتبرز في مظاهر شتى.

وقد يمثل إعادة تكوين المجالات أحد هذه المظاهر، فما نشهده اليوم هو بطريقة واضحة تفكيك للمجال الشرقي وإعادة بناء له. قد تبدو الأطراف المسؤولة عن التغيرات الراهنة في المجال ضبابية إلّا أنّ الحضور الغربي المكثف في نزاعات الشرق يجعلنا نصله بها.

وإذا ما رمنا دراسة الشرق كما هو اليوم من خلال مفاهيم إدوارد سعيد فإنّنا سنقف على تغير طبيعة هذا الشرق. أولا من ناحية المفهوم فلئن كان الشرق هو الشرق العربي كما أشار إلى ذلك إدوارد سعيد فإننا اليوم أمام الشرق "الإسلام" فلم نعد نتحدث عن الآخر المجال "الشرق" بل صرنا نتحدث عن الدين "الإسلام" فالصورة الجديدة للشرق هي صورة ذات بعد ديني بامتياز. ولعل هذا التغير في طبيعة الصورة يدفعنا إلى التساؤل عن المدى الذي ستبلغه هذه الصراعات خاصة وأنّ طبيعتها قد تغيرت.

قد نجد تبريرا لهذا التغير في تعريف الشرق من خلال العودة إلى ثنائية الأكاديمي والسياسي .إذ أنّ للدراسات التي كتبت حول الإسلام و طبيعة الدين الإسلامي رصيدا هاما في الدراسات الاستشراقية. ولا نجد بدا للتذكير بأنّ أغلبها كان ينظر إلى الدين الإسلامي على أنّه دين يعتمد العنف إلى جانب كونه مُقيدا للحريات.

وإذا ما كان الشرق "المجال" قد استنفد في القرون الماضية وصار الاستعمار المباشر خاصة بعد الحرب العالمية الثانية يمثل خرقا للمعاهدات الدولية فإنّ إعادة صياغة صورة الشرق يضحي أمرا بالغ الأهمية للتدخل فيه خاصة بعد أن أصبح يتمتع بنوع من السيادة المستقلة.

واحتاجت هذه التسمية الجديدة للشرق ككل خطاب إلى مفردات جديدة تؤثث الصورة. ولابد لنا أن نشير ههنا إلى مصطلح "الإرهاب" الذي أصبح لصيقا ب"الإسلام" . فمنذ أحداث ١١ سبتمبر تحوّلت وجهة الصراعات التي كانت ثقافية بالأساس كما يشير إلى ذلك اولفييه روا[١٨] لتستثمر في محاربة الإرهاب و الإرهاب الذي هو الإسلام إذ صبغ الاستشراق بمفهوم جديد يرى فيه الغرب الشرق على أنّه جوّ جغرافي يمثل فيه الإسلام نظاما دينيا و ثقافيا غير ملموس[١٩]. ولا عجب آنذاك أن تتلون كلّ المحاولات للسيطرة على الشرق بمصطلحات لها علاقة قرب أو بعد بالجانب الديني. نذكر من ذلك الحملات الفرنسية على أفغانستان لتحرير المرأة من البرقع .[٢٠]

ثم إنّ "البدائل المعاصرة" أو استشراق "إعادة تكوين المجالات" اتخذ له وسائل جديدة للتشعب والانتشار. فنحن لم نعد نتحدث فقط عن خطاب يحمل الفكر الاستشراقي بل أصبحنا نتحدث أيضا عن "الصورة المرئية". ونعني بذلك كل المجالات التي تستعين بالصورة مثل التلفاز أو التصوير و غيرها.

إذ أصبحت الصورة تتحكم بشكل كبير في توجيه الرأي العام، إذ يركّز الغرب على بثّ صورة معينة أو جانب معين من الحقيقة لتكوين فكرة معينة لدى المتقبّل. ونمرّ بذلك من صورة غير ملموسة ومتخيّلة إلى صورة حيّة وواقعية – من منظور غربي –. ولعلّ مفهوم الصورة المخترعة الذي أدرجه إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق يسقط ههنا أمام سلطة الصورة. فنحن لم نعد نواجه سلطة واحدة هي الخطاب مدعوما بمؤسسات سياسية وعلمية واقتصادية وأخلاقية إلى غير ذلك بل أصبحنا مضطرين لتحليل خطاب مصحوب بسلطة الصورة .

إنّ السبب الذي جعلنا نعود إلى مشروع إدوارد سعيد هو استمراريته إلى يومنا الحاضر والأدوات التي أشار إليها في كتابه هي الأدوات نفسها التي تستعملها "البدائل المعاصرة". قد لا نشير بشكل واضح إلى تسمية مقررة لهذه البدائل وما ترددنا هذا إلا ليقيننا أنّ الاستشراق الذي تواصل الى اليوم هو من التعقيد والتركيب ما يجعل تحديد كيان جديد خاص به أمرا عسيرا .

و يظهر هذا التعقيد الذي نشير إليه ههنا بشكل جليّ في توسع مفهوم الاستشراق الذي تجاوز الغرب ليشمل مكونات أخرى، ولعلنا ههنا نبرر ما ذكرناه سابقا بأنّنا لا نزعم تحديد هوية الأطرف المسؤولة عن تغير المجال في الشرق.

---

[١٨] Olivier Roy , *<et si l'orient disparaissait ?>* critique 2013-6 (n°793-794) , p. 543-552 . distribution électorinique Cairn.info pour Editions de Minuit

[١٩] م.ن

[٢٠] م.ن

فالاستشراق منهج في التفكير كما أشار إدوارد سعيد إلى ذلك يتجاوز الكيانات الجاهزة ويطال كل الأطراف. إنّ قولبة الآخر ومحاولة السيطرة عليه فكريا أو حتى جغرافيا والمساهمة، بالتالي في تكوين مجال جديد هو هاجس كل طرف و كل تمظهر سلطوي في هذا العالم وما الاستشراق سوى توصيف لذلك.

فنحن نظلّ دائما " شرقيّ " شخص آخر .[٢١]

إيناس النيغاوي

"الآراء الواردة في المقال لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر مركز برق للأبحاث والدراسات "

2016 © جميع الحقوق محفوظة لدى مركز برق للأبحاث والدراسات

[٢١] م.ن (On est toujours l'orientaliste de quelqu'un)